العويناتُ ليخفي منظرها وحدث مرةً انهُ اومض البرق وقصف الرعد فاصابهُ صداع الم وبعد قليل فتح عينيهِ فاذا هو يبصر بها كما كان قبل ان عميتا

ومعلوم ان الكهربائيَّة تنبِّه الجسم الميت فتحرك اعضاءهُ كما لو كان حيًّا حتَّى زعم بعضهم انهُ اكتشف فيها سرَّ الحياة وان الكهربائيَّة والحياة سيَّان ولم يتمكن انالة الحياة بواسطة الكهربائيَّة . ولم يزل العلماء يبحثون في هذا الموضوع وقد اكتشفوا حقائق كثيرة واما سرّ الحياة فلم يكتشفوهُ . وقد زعم بعضهم اخيرًا ان لا سبيل للنجاة من الموت الاَّ بترقيع الجسم ترقيعًا بالعمليات الجراحيَّة التعويضيَّة اي اذا ضعفت الكبد نزال ويعوَّض عنها بكبد اخرى سليمة واذا ضعف القلب يزال ويعوَّض عنهُ بقلب آخر صحيح كما يعوَّض عن الانف بانف آخر وعن الشفة بشفة اخرى . وهيهات ان يتسنَّى ذلك للانسان والموت اقرب اليهِ من حبل الوريد واعدائهُ الَّتي تخطف انباءهُ اكثر من ان تحصى واصغر من ان ترى وهي تناجيهِ من حيث لا يدري . وسواء افادت الكهربائيَّة في كشف سرّ الحياة ام لم تفد فهي من اغرب القوى الطبيعيَّة واكثرها فعلاً وسيكشف الانسان من غرائبها فوق ما اكتشف ويستخدمها في الصحة والمرض كما استخدمها في قضاء الاعمال

الضدّ حليف الجدّ

ليس يخلو المرء من ضدّ ولو حاول العزلة في رأس الجبل

انظرْ الى السموات العلى وراقبْ اجرامها بعين الفيلسوف نيوتن وبنظارة الفلكي هرشل تترى الشموس والكواكب تتجاذب وتتضادّ قوَّة الجذب كأنها الابطال في ميدان الصراع حتى اذا زاد جذب الواحد او قلَّ مضادَّة الآخر وقع بعضها على بعض كما تقع الرجم على الارض[1] . والشمس والسيارات كلها والارض في جملتها محفوظة في مراكزها بتوازن قوتي الجذب والدفع بينها وبين بقيَّة اجرام السماء فلو زالت الاجرام السموية من جهة من الجهات لاصطدمت السيارات بعضها ببعض وانجذبت الى الجهة الاُخرى .

(١) حسبوا انهُ يقع على كرتنا الارضية في كل اربع وعشرين ساعةً اربع مئة مليون من الرجم الصغيرة ولكنها تحترق في الهواء ولا يصل منها الى الارض الاَّ النزر القليل . وارتأى الفلكي لنير ان نور السدم حادث من وقوع هذه الرجم عليها وانتعالها بصادمة بعضها لبعض كما ايدا ذلك غير مرة

ولعلّ النجوم الوقتيّة التي بتآلق نورها منذ بضعة ايام صدمتها نجوم أخرى غير منظورة فاشتعلت بقوة المصادمة وسطع نورها ثم اضمحلّت سدامًا وحجارة ايزكية كما كانت قبل ان تجمعت وجمدت

وانظر الى الارض ترَ الحرّ والبرد يتعاقبانها وأجزاءها تجتمع ثم تتألف وتتفرّق والجذب والدفع متسلطين على كل ذرة منها. فالحرارة تمدّد دقائق الماء وتفرقها وتصيّرها بخارًا والجذب يقرّب هذه الدقائق ويرجعها سائلاً. والهواء والماء يرتفعان الصخور وينتاتها والجواذب الطبيعيّة والقوى الكيماوية والحيوية تجمع النبات وتعيده صخرًا صلدًا. والارض كلها في حركة مستمرة واضطراب دائم بين قوتي الجذب والدفع او التحالف والتضاد. ومنها ظهرت ثابتة فهي تدور على محورها مرة كلّ اربع وعشرين ساعة فتسير بالبلدان التي على خط الاستواء سبعة عشر ميلاً في الدقيقة. وتدور مرة حول الشمس كل سنة فتسير بنا كل يوم اكثر من مليون ونصف من الاميال

والنور يصل الينا من الشمس وبقيّة الاجرام السموية وكأنه يقطع الفضاء ولا يجد فيه ضدًا يمانع حركته ولكنّ الامر على غير ذلك لان دقائق الاثير التي ينتقل بها تضاد سيره حتّى لا يصل الينا من اقرب النوابت الاّ بعد ان يقاوم دقائق الاثير مدة اربع سنوات مع ان سرعته نحو مئة وتسعين الف ميل في الثانية من الزمان ولا يصل من بعضها الاّ بعد ان يقيم في طريقه ثلثمئة وستًا وعشرين سنة يقطع فيها الاثير التي تضادّه عن المسير

واذا تركنا عالم الجماد وانتقلنا الى عالم النبات رأينا المضادّة ضربة عامّة والمجاهدة شديدة ثابتة فكل نبات من أرز لبنان الى الزوفا النابت على الحائط بل الى البكتيريا التي لا تُرى الاّ باقوى المكبرات في جهاد دائم من حين تنبت فيه جرثومة الحياة الى ان يموت ويحلّ ولولا هذا الجهاد ومضادّة الاحوال واضطراره لمقاومتها ما تقوّى ولا تغلّب عليها ولا بقيت انواعه الى الآن

واذا ارتقينا خطوةً الى عالم الحيوان رأينا الجهاد في كل عضو من اعضائه فالقلب يخفق مستمرًا وخفقانه دليل على انه يقاوم قوةً تضاد حركته والعروق تنبض لتدفع الدم من جهة الى أخرى ولو بطل خفقان القلب او نبضان العروق لزهقت الحياة. والرئتان لا تنبسطان ولا يدخل الهواء فيهما ما لم تقاوما ضغط الهواء والعضلات المضاد لحركتها. والهضم والتغذية وكل الافعال الحيوية انما هي جهاد وقوىً تقاوم قوىً اخرى

مضادة لها. وهذا الجهاد على اشده في الدم. انظر اليها بكبياءك تحت عنوان الحرب العوان في دم الانسان تر جراثيم الامراض يحارب بعضها بعضاً والدم ميدان القتال فاما ان يغلب النافع منها فيسلم الانسان من الاذى واما ان يغلب الضار فيفسد الدم وينصرم حبل الحياة.

والانسان وهو سيد المخلوقات لا يخلو من ضدٍّ ولا بدَّ له من الجهاد الدائم فاذا ولد في نعمة واسعة وأكل خبزه هنيئاً مريئاً بلا نصب ولا تعب ضعفت جسمه وخملت قواه وصار مبلغة للامراض ثم فسد نبله وانقرض. واذا ولد في الفقر او عكف على السعي لقي من مضض العيش ومضادة المناظرين ما لا ينقضي بانقضاء الحياة. وقد لا يضطر الى التعب ولا الى العمل ولكنه يرى من نفسه ما يدفعه اليها فيسعى لهارباً كله في طلب فاختة والحمام ملءُ دارهِ ويحوب الجبال والاودية لاصطياد غزال. والقطعان ملءُ صيرهِ. ولا يهنأ له عيش ما لم يخضم المشاق ويقاوم الاضداد. واذا كان صانعاً او تاجراً او حاكماً فلا بدَّ له من الجهاد ومقاومة الاضداد كل يوم وكل ساعة.

وما يصدق على الافراد يصدق على الشعوب. فانها كلها لا يهنأ لها عيش ما لم تكن على اهبة لمقاومة الاعداء ومعاونة الاصدقاء. ولا يتم لها ذلك الا ببناء الحصون وتعبئة الجنود وانشاء البوارج. والشعوب كلها في حرب عوان سواء تناجزت في ميدان الوغى او وقفت بعضها لبعض بالمرصاد وغرضها الاول السيادة والكسب. ولا يكاد الولد يبلغ السابعة من عمرهِ حتى يشرع والداهُ يحثانهِ على سبق غيرهِ والتغلب على كل ما تعترضهُ من الموانع والاضداد. واي حرب اشد من حرب المسابقة التي اضطرمت نارها في هذا الزمان وقتلاها وجرحاها يعدون بمئات الالوف بين قتيل يخيف الجسم من الدرن والسهر وصانع كاسف البال من هبوط الاسعار وتاجر يعض النواجذ على ربح اضاعهُ والخيل ذابت حوافرها والمركبات بريت اطرها وكل احد يبذل الجهد ويسهر الليل لسبق غيرهِ والاغراض متباينة بعضها نافع وبعضها ضار وكلها ضربة لازب لمقاومة الاضداد. ولقد احسن قدماء الفرس اذ زعموا ان للعالم الهين اله الخير واله الشر وهما ضدان متناظران وفي ذلك يقول شاعرهم ناظم الاوستا

هذان روحان منذ البدء قد وجدا في الخير والشر خيراً غير منقسم

وكأنَّ الخير المجرَّد والشر المجرَّد اسمان لا مسمَّى لهما لان ما بعدهُ زيد خيراً بعدهُ عمرٌو شراً. قيل سأل احد المرسلين رجلاً زنجياً من اتباعهِ قائلاً ما هو الشر فقال هو

الجد الغير ماني فقال وما هو الخير فقال هو اخذي ما للغير. وهذا القول تجري عليه شعوب الارض فعلاً وإن مخالفته قولاً فترى كل دولة تطلب من الله ان ينصرها على اعدائها وكل شعب يشكر الله لانه اهلك اعداءه وكل فريق يدّعي انه محق في طلبه وشكره

وفي الجملة نقول انه لا بدّ من التضادّ في كل الخليقة الحيّة وغير الحيّة فلا حركة في الجماد بلا تضادّ لانه لا يمكننا ان نتصوّر جسمًا متحركًا الاّ بالنسبة الى جسم آخر ساكن او متحرك الى جهة اخرى او الى الجهة نفسها ولكن بسرعة اخرى وعلى كل حال لا بدّ من ان يضادّ هذه الاجسام بعضها بعضًا. ولا حياة للنبات ما لم يغتذِ بالموادّ التي حوله وهو لا يغتذي بها ما لم يتغلّب على حركتها وسكونها وبقلبها من حال الى حال ولا بدّ لها من ان تضادّه في كل ذلك. ولا حياة للحيوان ما لم يتغلّب على غيره من نبات وحيوان. فاذا عضّه الجوع زادت شراسة اضعاف الاضعاف حتّى يهجم على الموت ولا يخشى حيفًا. واذا وقع في ارض كثيرة المرعى والصيد وتنعّم فيها وبطر استولت عليه الامراض وإماتت منه اكثر مما يميت الجوع. وهذا شأن الانسان فالشدّة تؤلمه والرخاء يقتله ولا بدّ في الحالين من الجهاد

وقد تغيّرت احوال الناس تغيّرًا عظيمًا في هذا القرن فانتظم حال البريد والتلغراف فزالت مشقة الانتظار والسفر وزاد الامن على المال والحياة ولكن لم تزل الاضداد بل تولّدت اضداد جديدة من حيث لا تنتظر فانتظام البريد دعا الى كثرة الرسائل ومطالبة الاصدقاء بها فالذي كان يكتب رسالة واحدة في يومه منذ ثلاثين سنة يضطر الآن ان يكتب خمس رسائل والذي كان ينتظر الخبر شهرًا من الزمان صار يقلق اذا تأخر عنه ساعة والذي كان يروض جسمه بالسفر على صهوات الجياد صار يضطر ان يروض جسمه بآلة صناعيّة والاّ تولاّه الضعف والخمول. والذي كانت اللصوص تسرق منه المئات لتأكل ونعيش صار يضع الالوف بالمضاربة والمقامرة. والذي نجا من سيف الاستبداد صار عرضة للوقوع في مخالب الجوع والفقر اذا اخطأ مجلس النوّاب في حكم من احكامه

وناموس الارتقاء ناطق بان الانسان بلغ ما بلغ من القوة الجسديّة والعقليّة بمقاومة الاضداد خلافًا لقول ابي الطيب القائل « لولا المشقة ساد الناس كلهم » فلا يشكوَنّ احد من المضادّة والمقاومة ما دام التضادّ ناموسًا عامًّا من نواميس الوجود والضدّ حليف الجدّ